رسالة مفتوحة من كاهن عربي سوري
إلى من يهمه الأمر...

الأب الياس زحلاوي

دمشق في 2023/10/24

إزاء ما حدث ويحدث، منذ السابع من تشرين الأول/ أكتوبر، عام (2023)، في غزة، في فلسطين المحتلة،

من حيث انتفاضة المقاومة، المسماة "طوفان الأقصى"...

ومن حيث الابادة الجماعية المنتظمة، التي يُقدم عليها الاحتلال...

ومن حيث صمت الكنائس المسيحية المسؤولة كلها، شرقاً وغرباً...

ومن حيث هرولة المسؤولين السياسيين "الكبار"، في الغرب، إلى "إسرائيل"...

ومن حيث الهبّات الشعبية العالمية والمتعاظمة، المؤيدة لفلسطين...

ومن حيث عجز المؤسسات الدولية "الكبرى"، المطلق، عن إصدار إدانة صريحة واحدة بحق "إسرائيل"، منذ "إنشائها" عام (1948) حتى اللحظة...

رأيت من واجبي مرة أخرى، أن أذكّر بحقائق تاريخية صرف، قديمة وحديثة، قد تكون غابت – أو غُيّبت! – عن الكثيرين، لِأختم، مِن ثمّ، مقاربتي هذه، بسؤال واحد لا غير.

الحقيقة الأولى

إن السيد المسيح، وهو على الصليب، قال حيال صالبيه:

"أيها الآب،

اغفر لهم،

لأنهم لا يدرون ما يعملون"!

الحقيقة الثانية

بالمقابل، فإن الكنيسة، وقد واجهت، في إيمان وتحدٍّ رائعين، أهوال الاضطهادات على يد اليهود أولاً، ثم السلطات الرومانية، حتى عام (313)، حيث أعلن الامبراطور قسطنطين حق المسيحية في الوجود، أسوة بالديانات الأخرى، قد أُخِذَت أيضاً منذ ذلك الحين، على صعيد الكثيرين من مسؤوليها، بنشوة التحالف مع أصحاب السلطة... وبدلاً من أن تعيش المحبة والغفران بكامل أبعادهما، أسوة بالسيد المسيح، تنمّرت واستصدرت، على مستوى الإمبراطورية كلها، شرقاً وغرباً، قوانين ظالمة بحق اليهود...

منها أنه حُظّر عليهم بموجبها، العمل في إدارات الإمبراطورية كلها، وامتلاك عبيد مسيحيين في مزارعهم الكثيرة والشاسعة، كما فُرِض عليهم السكن في أحياء خاصة بهم، ومُنِعوا من الخروج من بيوتهم، طوال الأعياد المسيحية الكبرى، مثل عيدَي الفصح والميلاد...

ولقد أقدمت الكنيسة المسيحية على كل ذلك، وأمعنت فيه، ممارسة، وكتابة، وصلاة، ووعظاً، طوال مئات السنوات، أملاً منها في إكراه اليهود على اعتناق المسيحية!

الحقيقة الثالثة

ليس هناك من يجهل أن هذا الموقف بعينه، كان السبب الرئيس في نشوء ايديولوجيا عنصرية، هي على طرفي نقيض مع السيد المسيح والمسيحية كما شاءها! إلا أنها نشأت، ونمت، وترسّخت، وتطوّرت، حتى صارت تُعرَف باللاسامية. ولقد اكتسحت، بمرور الزمن، الغرب كله، ومعه البلدان السلافية، ولا سيما روسيا. وليس من يجهل أنها أَلحقَت باليهود جميعاً، في جميع البلدان، ألواناً مروّعة من الآلام والتعسّف، استطالت على مدى قرون، تحت سمع الكنائس كلها، وبصرها وتأييدها، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه، في منتصف القرن العشرين، مع هتلر، بما بات يُعرَف بالمحرقة النازية!

الحقيقة الرابعة

وثمة حقيقة أخرى، لا بد من الاعتراف بها، إن هي إلا نتيجة حتمية لهذا التاريخ المأساوي الطويل، وهي لم تعد بخافية على أحد. ذلك بأن حقداً مَرَضياً عارماً، بات يتملّك معظم اليهود، على نحو سافر، حيال البشر جميعاً، ولا سيما المستضعفين منهم، كما هم العرب اليوم، علماً بأن اليهودي عموماً كان في المجتمعات العربية والإسلامية الحاكمة، القديمة، في مأمن شبه تام من بعض ما عانى في الغرب "المسيحي"...

بل إن مؤرّخيهم، من فرنسيين وأميركيين، بل وإسرائيليين، يُجمِعون – كما جاء في كتاب لـ "آبا إيبان" بعنوان "شعبي"، في ترجمته الفرنسية، في الصفحة (155) – على "**أن بعضهم بلغ في المجتمعات الاسلامية القديمة، لا سيما في الأندلس والمغرب، ما يفوق ما بلغوه من غنى ونفوذ، حتى في ألمانيا والنمسا في القرن التاسع عشر، وفي الولايات المتحدة في القرن العشرين**". وأما حقدهم على المسيحيين عموماً، وعلى الكنيسة الكاثوليكية خصوصاً، فليس من يجهله، إلا أنه، في حقيقة الأمر، مثار لتساؤلات مخيفة، حول مدى حجمه وتغلغله.

وحسبي الآن أن أشير إلى مُسلّمة ليس من ينكرها، وهو تحكّمهم المطلق بوسائل الإعلام العالمية، وترصّدهم الدؤوب والفاعل لجميع المسؤولين في الكنيسة الكاثوليكية، لا سيما في الولايات

المتحدة، ومسارعتهم إلى إسقاط أبشع الاتهامات بحق من يجرؤ على رفع الصوت منهم، كما حصل للكاردينال "برنار لو"، رئيس أساقفة بوسطن، عندما تجرأ وكتب للرئيس جورج بوش، عام (2002)، متهماً إياه بالكذب على الشعب الأميركي وعلى الحقيقة!

وما جرى ويجري في غزة اليوم، دليل أكثر من صارخ، على أنهم تجاوزوا في "لاإنسانيتهم"، كل الخطوط والحدود!

وهل لأحد أن ينسى ما زُرع فيهم، منذ آلاف السنين، من يقين اعتقادهم بتفوقهم العرقي على الشعوب جميعاً، بفعل إيمانهم باختيار "الله" لهم، دون البشر جميعاً؟!

الحقيقة الخامسة

وأما الحقيقة الخامسة، فهي تلك العُقدة المَرَضِية، عُقدةُ الذنب، التي باتت تتحكّم كلياً، بجميع المجتمعات الغربية عموماً، وبجميع كنائسها الكاثوليكية خصوصاً، تلك العقدة التي يستحيل من دونها، تفسير تأييد المجتمع الغربي لنشوء "إسرائيل"، بكل ما سبق هذا "النشوء"، ورافقه وأعقبه، من خروق فاضحة للقوانين والأعراف الدولية. وهي هي التي تفسّر صمت الكنائس، ولا سيما الكاثوليكية منها، وعلى رأسها الفاتيكان، حيال المظالم الفاضحة والمتعاظمة، التي ارتُكِبت وتُرتكَب بحق فلسطين، حتى إنه استُبدِل اسمُها باسم "إسرائيل"، فيما لم يعد يُسمّى ما تبقى من فلسطين بيد العرب، في الوثائق الكاثوليكية الرسمية، سوى "الأرض المقدسة"!

وما يرتكب اليوم في غزة، بدم جليدي، من إبادات جماعية تطال على نحو خاص آلاف الأطفال والنساء، دون أن تُسمَع كلمة واحدة من مرجعية كاثوليكية عليا واحدة، في طول الأرض وعرضها، إنما هو في نظري، الدليل القاطع على اشتراك الجميع في الشعور المَرَضي العميق بالمسؤولية الكبرى في ما اقترفه المسؤولون الكنسيون السابقون، على نحو مباشر أو غير مباشر، منذ عهد الإمبراطور قسطنطين حتى المحرقة النازية، من أخطاء برّرت وغذّت "لاسامية" لعينة، ما كان لشيء على الإطلاق، أن يبرّرها أو يفسّرها في مسيحية يسوع الناصري!

السؤال

وهنا، أجدني منقاداً في مقاربتي الوجيزة هذه، إلى السؤال الفصل الوحيد:

أما آن لكنيسة يسوع أن تتحرّر من تبعيّتها المَرَضِيّة الألفيّة للإمبراطور قسطنطين، كي تعود بكامل حرّيتها، وتحدّيها وقوتها، إلى يسوع الفادي، وبالتالي إلى الإنسان، كل إنسان؟

دمشق 2023/10/24
الأب الياس زحلاوي